اهتمام الدولة العثمانية بالشؤون العلمية في الحجاز

أ.م.د. حذيفة عبدالله عباس النعيمي
جامعة تكريت / كلية الآداب
habdullah@tu.edu.iq

الملخص:

تتمتع بلاد الحرمين الشريفين بمكانة عظيمة في نفوس المسلمين، لكونها مركزًا دينيًا وفكريًا وحضاريًا، فضلًا عن كونها مقصدًا لطلبة العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي، لذلك أولت الدولة العثمانية اهتمامًا كبيرًا بالحجاز منذ السنوات الأولى لسيطرتها عليه.

بذلت الحكومة العثمانية دوراً بارزاً ومهماً في نهضة العلم والمعرفة في الحجاز بشكل عام وفي الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بشكل خاص، من خلال تقديم خدمات كبيرة من خلال الدعم المالي أو المعنوي أو عبر إنشاء مؤسسات علمية كالمدارس والكتاتيب، وكذلك قامت بالعديد من الأوقاف والهبات والصدقات لديمومة الحركة العلمية فيها، لاسيما تخصيص رواتب وإرسال معونات لجميع الموظفين في الشؤون الدينية والمدرسين والعلماء ولطلبة العلم أيضاً.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، الحجاز، مكة المكرمة، المدينة المنورة، التعليم.

The Ottoman state's Interest in Scientific Affairs in the Hijaz

Prof. Dr. Hudhaifa Abdullah Abbas AL-Nuaimi
Tikrit University/ College of Arts

Abstract:

The Two Holy Mosques hold immense importance in the hearts of Muslims, serving as a center of intellectual and cultural influence and a destination for students of knowledge from across the Arab and Islamic world. This explains the Ottoman state's keen interest in the region from its earliest days of rule in the Hijaz. The Ottoman government played a prominent and important role in the advancement of science and knowledge in the Hijaz in general, and in the Two Holy Mosques (Mecca and Medina) in particular, by providing significant and substantial services, whether in financial or moral support, or through the construction of scientific institutions such as schools and Quranic schools. It also established numerous endowments, gifts, and charitable donations to sustain the scientific movement there, especially by allocating salaries and sending aid to all employees in religious affairs, teachers, scholars, and students of knowledge as well. **Keywords: The Ottoman State – Hejaz – Mecca – Medina – Education.**

المقدمة:

تعد بلاد الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) هي بلد القداسة والدين، ومنها ظهر نور العلم، وفيها نزل جبريل (عليه السلام) على سيدنا محمد (ﷺ)، وفيها أنزلت آيات الله الكريمة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه البلاد هي مناطق يأتي إليها الناس من كل مكان، حتى أصبحت مناراً للعلم والعلماء.

يعد الحرمين الشريفين من أهم المراكز العلمية والثقافية في العالم الإسلامي عامةً، فقد استقبلت هذه المدينتان طلاب العلم من أنحاء العالم الإسلامي كافة، فالتقت فيها جهود علماءها وطلابها من المكيين والمدنيين والمجاورين بجهود العلماء وطلبة العلم القادمين إليها، وأصبحت الحياة العلمية فيها مزدهرة، وتكونت نهضة علمية كبيرة سبقت غيرها من المدن الإسلامية والعربية.

وقد اهتم العثمانيون بالشؤون العلمية في الحجاز، ودعموا هذا الجانب بالعديد من الأمور، وشجعوا العديد من علماء الأمة إلى الذهاب إليها، وقد نجحوا أيضاً في إزالة العوائق السياسية بين المدن الإسلامية، لذا كثرت حلقات العلم والدروس فيها، وتم تخصيص الأوقاف لها، حتى صارت بلاد الحجاز منبعاً للعلم والعلماء.

قسم البحث إلى ثلاثة مباحث، الأول: (التعليم في الحجاز إبان العهد العثماني)، وتكلم عن أنواع التعليم في الحجاز في تلك المدة، وتم تقسيمه إلى (التعليم الديني والحديث)، أما المبحث الثاني: (دور العلماء في الحركة العلمية في الحجاز في العهد العثماني)، فقد تطرق إلى العلماء الذين كان لهم دور في تلك المدة، وهم المجاورون والأسر العلمية، أما المبحث الثالث: (دور الدولة العثمانية في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز)، فقد ذكر أهم الأمور التي قام بها العثمانيون لتنشيط الحركة العلمية في الحجاز في ذلك الوقت، إذ قاموا بالعديد من الأوقاف وإعطاء الهبات، وقاموا بالتوسع في بناء المدارس والكتاتيب وتخصيص رواتب للموظفين في الشؤون الدينية والمدرسين، وكذلك إنشاء المكتبات.

المبحث الأول: التعليم في الحجاز إبان العهد العثماني (1520 – 1912)

يعد التعليم أحد المقاييس الأساسية لتقدم أي مجتمع من المجتمعات، ولذلك حرص العثمانيون طوال مدة حكمهم بالتعليم في الحجاز، الذي كان يسير وفق أنظمة التعليم المتبعة في الولايات العثمانية الأخرى، إذ كان التعليم في الحجاز يتكون من كتاتيب ومدارس دينية، فضلاً عن التدريس في المساجد، لذا يمكن تقسيمه إلى التعليم الديني والتعليم الحكومي:

أ- التعليم الديني:

كان التعليم في الحجاز يتم في المساجد أو في أماكن الدراسة كالمدارس، فالتعليم في المساجد هو الغالب في ذلك الوقت، وكان يبدأ من بعد صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء، وقد كان هذا الاهتمام بسبب

وجود الحرمين الشريفين، اللذين كانا من أهم مراكز الدراسات الإسلامية والعربية منذ القرن الأول الهجري، وبقي هذا الاهتمام حتى أواخر العهد العثماني (يوسف، 2011، ص80 – 81).

كان الحرم المكي يحتضن الكثير من العلماء، يقرؤون مختلف دروس العلم من النحو والفقه والتجويد والحديث والتفسير وغيرها من العلوم، وقد ذُكِرَ أن مفتي مكة الشيخ أحمد دحلان (1817 / 1886م)، الذي أصبح مفتياً في عام 1871م كان يقرأ تفسير البيضاوي بعد صلاة الفجر، ويحضر دروسه كبار العلماء، ثم بعدها يقومون أولئك العلماء بالتدريس في جهات المسجد الحرام (التازي، 2005، ص539).

وقد اشتهر الحرم المكي بكثرة الحلقات الدراسية فيه، إذ قدرت بنحو (120) حلقة، وكان المدرس يخضع لاختبار في النحو والفقه والتفسير والحديث على يد مجموعة من العلماء برئاسة مفتي الحرم المكي أحمد دحلان، وكان يتم التركيز في الامتحان على الاختصاص الذي سيقوم المدرس التدريس فيه، وكان يقوم المدرسون باختيار المناهج التي يقومون بتدريسها بأنفسهم، وكلاً حسب اختصاصه، وقد بلغ عدد المدرسين عام 1886م نحو (107) مدرس (يوسف، 2011، ص81).

تبدأ أوقات الدروس بعد صلاة الفجر، وتستمر إلى بعد صلاة العشاء، وكان بعد كل فرض من فروض الصلاة هناك دروساً تقام في المساجد ومنها المسجد الحرام والمسجد النبوي، وكانت لغة التدريس هي اللغة العربية، ويجوز للمدرس أن يترجم معاني الكتاب الذي يقرأه إذا كان في طلبته من غير العرب، وكان يتم تخصيص مرتب شهري لبعض المدرسين، وذلك لانشغالهم بالتدريس عن طلب المعيشة والأعمال (يوسف، 2011، ص82).

كان هناك لجنة في المسجد الحرام والمسجد النبوي، والتي تتكون من أكابر العلماء والمفتين على المذاهب الأربعة، وهم الذين يقررون متى يبدأ طالب العلم بالتدريس، فبعد أن يمتحنوه في أساسيات العلم والمعرفة من النحو والصرف والفقه والمعاني يعطى له شهادة ليقوم بالتدريس على ضوئها، كما يقومون بمساعدته في أول دروسه، ويجالسونه لكي يرون مستواه وقدرته على الشرح (الشامخ، 1973، ص17).

كانت مدة الدرس غير محددة، وكان الأستاذ هو الوحيد الذي يستطيع أن ينهي درسه، وهي في الغالب بحدود ساعتين، أما عن نظام الدراسة وتنظيم حضور الطلاب، فكان الطالب يستطيع الحضور بأي وقت، وأن ينصرف متى شاء، أي كان لأي شخص أن يحضر أي حلقة علم يرغب بها، وكان بسبب ذلك يتباين أعمار الطلاب بشكل كبير، فمن الممكن أن نرى في الحلقة نفسها الشاب اليافع والغلمان والكهول (النابلسي، 1986، ص400).

كما تأسست عدداً من المدارس الدينية في الحجاز، ومن أبرز تلك المدارس مدرسة الصفا لتدريس العلوم الدينية التي انشأها السلطان مراد الثالث (1574 – 1594م) (الصبحي، 1989، ص197)، والمدرسة الداودية التي انشأها والي مصر داود باشا (1538 – 1548م)، وهي مدرسة لتعليم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً والحديث الشريف (بيومي، 2001، ص362)، ومدرسة شمس الدين الذهبي، وهي مدرسة دينية

متخصصة، وكانت تعلم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، والمدرسة الحميدية التي انشأها السلطان عبد الحميد الأول (1773 – 1788م)، والمدرسة المجيدية التي انشأها السلطان عبد المجيد الأول (1839 – 1860م) (صابان، 1998، ص176).

وأيضاً تم إنشاء المدرسة الصولتية في مكة المكرمة، التي تأسست في عام 1875م على يد الشيخ محمد بن خليل الكيرانوي العثماني (1818 – 1891م)، واستقبل فيها طلاب من الحجاز ومن سائر أنحاء البلاد الإسلامية، وكان فيها أساتذة من الحجاز ومن الهند، وكان يدرس فيها العلوم الدينية المختلفة (صديق، 2006، ص334).

ومن أبرز المدارس الدينية أيضاً المدرسة الفخرية، التي أسسها الشيخ عبد الحق قاري في عام 1879م في مكة المكرمة، وهو أحد أساتذة المدرسة الصولتية، وقد اعتمد على المساعدات الخيرية التي كان يقدمها مسلمو الهند لاستمرار المدرسة في إعطاء دروسها، وكان التعليم فيها ذو نهج عصري، وكانت تدرس علوم القرآن المختلفة، فضلاً عن النحو والحساب والإملاء (الشامخ، 1973، ص50).

وكذلك تم إنشاء المدرسة الخيرية في مكة المكرمة في عام 1908 على يد الشيخ محمد حسين بن يوسف خياط (1882 – 1936م)، وكانت تدرس العلوم الدينية والتاريخ والجغرافية والرسم والأدب واللغة العثمانية بشكل مجاني، وكان دعمها من الإدارة العثمانية في الحجاز، وقد امتازت بأعدادها الكبيرة نسبياً، إذ بلغ عدد طلابها عام 1910م نحو (300) طالب (يوسف، 2011، ص86).

وفي عام 1912م انشأت مدرسة الفلاح في مكة المكرمة، وبدعم من محمد علي زينل (1889 – 1969م)، وهو أحد أعلام النهضة في الحجاز، وبلغ عدد طلابها فور تأسيسها نحو (200) طالب، وقد اهتمت هذه المدرسة برفع مستوى الطلاب في العلوم الدينية والدنيوية، وكانت مقسمة إلى ثلاث مراحل، وكل مرحلة ثلاث سنوات، المرحلة التحضيرية وتدرس فيها العلوم الدينية فقط، ثم المرحلة الابتدائية وتدرس فيها فضلاً عن علوم القرآن، الحساب والنحو والصرف والخط، والمرحلة الثالثة وهي المرحلة الرشدية، وكان يدرس فيها فضلاً عن علوم القرآن المختلفة التاريخ والجغرافية والحساب (صديق، 2006، ص345 – 355).

وتم إنشاء العديد من المدارس في المدينة المنورة مثل مدرسة داود باشا التي انشأها مع مدرسته في مكة المكرمة، وأوقف عليهما وقفاً واحداً، ومدرسة إبراهيم الخياري (1627 – 1672م)، ومدرسة صوقللي محمد باشا (صابان، 1998، ص177)، والمدرسة الخاصكية التي انشأها خاصكي سلطان محمد الرابع (1641 – 1692م)، ومدرسة عبد الباقي أفندي (بيومي، 2001، ص364 – 365)، ومدرسة بشير أغا التي تم انشاؤها في عام 1738م، والمدرسة المحمودية التي انشأها السلطان محمود الأول (1730 – 1754م)، والمدرسة الحميدية التي انشأها السلطان عبد الحميد الأول (العواد، 2015، ص38).

أما أبرز الكتاتيب التي انشأت في تلك المدة في مكة المكرمة كُتَّاب حسن أفندي الرومي، وكُتَّاب مراد باشا، وكُتَّاب لقراءة القرآن بعد صلاة الفجر، وكُتَّاب أيتام ناظر وقف أمير الحج، وكُتَّاب تعليم التجويد، وفي

المدينة المنورة انشأ كُتَّاب السلطان مراد الثالث، وكُتَّاب والدة السلاطين، وكُتَّاب عبد الرحمن كتخدا لتحفيظ القرآن وإعطاء كسوة للأطفال الأيتام (بيومي، 2001، ص351 – 357).

أما بخصوص المدة الزمنية التي يقضيها الطالب في الكُتّاب فتستغرق ما بين ثلاث سنوات إلى ست سنوات، وكان عدد الدارسين يختلف من كُتّاب إلى آخر وذلك حسب مساحة الكُتّاب، وحسب المنهج الذي يقرأ عليه، وكذلك حسب استيعابه وإكماله المناهج المناطة به (الشامخ، 1973، ص84).

ب- التعليم الحديث:

كان التعليم في الحجاز في القرن التاسع عشر يتألف من مرحلة ابتدائية مدتها ثلاث سنوات، ثم مرحلة رشدية مدتها ثلاث سنوات أيضاً، ثم مرحلة إعدادية، وهي نوعين، بعضها مدتها خمس سنوات والبعض الآخر مدتها سبع سنوات، كما تم تأسيس مدارس صناعية وزراعية ودار معلمين في أغلب الولايات العثمانية في الحجاز (يوسف، 2011، ص83).

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان هناك عدد من الكتاتيب والمدارس التي اتخذت من اللغة التركية لغة لها، وبدأت تصدر مقالات في مجلات باللغة التركية، مثل مجلة (الحجاز ولايتي سالنامه سي) وهي مجلة عثمانية لولاية الحجاز، كان تصدر باللغة التركية، وأول عدد لها كان في عام 1883م (الشامخ، 1973، ص27 – 28).

وقد كان عدد الكتاتيب في ولاية الحجاز في تلك المدة يفوق عدد المدارس، إذ كان عدد الكتاتيب بين عامي (1883 – 1884م) هو (33) كُتَّاب وفيها (1150) طالب، وقد ارتفع العدد إلى (43) في المدة بين (1885 – 1888م)، بينما كان عدد المدارس في عام 1883م هو (4) مدارس فقط، ثم ارتفع العدد إلى (6) مدارس في المدة بين (1885 – 1888م) (المصعبي، 2018، ص132 – 133).

أما المدارس الرشدية في الحجاز، فقد أقامت الدولة العثمانية خمس مدارس رشدية بالحجاز، وكانت خاضعة للنظام الإداري الحديث، وقد افتتحت أول تلك المدارس بمكة المكرمة عام 1885م عند باب الدريبة أحد أبواب الحرم المكي الشريف، بدعم من أوقاف الحرمين الشريفين، وكان الغاية من تلك المدارس تخريج مؤهلين للعمل في القطاعات المدنية المختلفة، ولذلك كانت تدرس باللغة التركية (صديق، 2006، ص316).

وبطبيعة الحال اختلفت الدروس التي كانت تدرس في المدرسة الرشدية، إذ تم إعطاء التلاميذ أساسيات في القرآن الكريم والنحو والصرف، وقواعد اللغة التركية، والمطالعة والخط العثماني والحساب والجغرافية، لاسيما الرسم والرياضة البدنية (الشامخ، 1973، ص31 – 32).

المبحث الثاني: دور العلماء في الحركة العلمية في الحجاز في العهد العثماني

انقسم العلماء في الحجاز خلال العهد العثماني إلى قسمين رئيسين، هما: المجاورون، والأسر العلمية.

أ– المجاورون:

وهم العلماء الذين وفدوا إلى الحجاز، سواء إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، لأسباب متعددة ثم أقاموا فيهما مدة من الزمن أو حتى وفاتهم. وقد كانوا كثرةً، وأسهموا بصورة واضحة في تنشيط الحركة العلمية، إذ ازدهرت حركة المجاورة في الحرمين الشريفين خلال العصر العثماني، وكان أغلب هؤلاء من مصر وبلاد الشام لقربهما الجغرافي من الحجاز، فضلاً عن الارتباط السياسي القائم بين هذه الأقاليم والممالك والدول التي نشأت في المنطقة (آل مشاري، 2014، ص33).

وقد حرص عدد كبير من علماء المسلمين القادمين من مصر وبلاد الشام وغيرهما على المجاورة في الحرمين الشريفين بسبب توافر البيئة العلمية المناسبة فيهما، إذ كان العلماء من مختلف أقطار المشرق والمغرب يلتقون هناك رغم اختلاف ثقافاتهم ومذاهبهم، مما جعل هذا اللقاء فرصة لنشر العلوم وإظهار المعارف، فضلاً عن منح الإجازات العلمية للطلاب، الأمر الذي أسهم في إيجاد نوع من الوحدة الثقافية والمعرفية بين أنحاء العالم الإسلامي (الجابري، 2005، ص146).

وأولت الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً بالعلماء المجاورين، فعملت على إرسال الصدقات السلطانية والهبات وآلاف الأرادب من الحبوب إلى الحرمين الشريفين، وكان للمجاورين نصيب من تلك الأرزاق، الأمر الذي ساعدهم على التفرغ للعلم والتدريس بعد استقرار أوضاعهم المعيشية (الطبري، 1993، ج1، ص362).

واتسم المجاورون بنشاط علمي واسع، إذ قدموا فوائد كبيرة لطلبة العلم والمسلمين عامة، وتمثل نشاطهم في تأليف ونشر عدد كبير من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون، كما مارسوا نشاطهم العلمي في مؤسسات الحرمين الشريفين المختلفة، مثل المساجد التي أقاموا فيها حلقات علمية متعددة، وكذلك الأربطة التي كانت مقراً لإقامة أغلبهم، فأتاحت لهم فرصة عقد المجالس العلمية وتبادل الإجازات، فضلاً عن المدارس التي مارسوا التدريس فيها أثناء إقامتهم بالحرمين الشريفين (المديرس، 2001، ص201).

ب– الأسر العلمية في الحرمين:

تُعد الأسر العلمية في مكة المكرمة والمدينة المنورة من أبرز مظاهر ازدهار الحياة العلمية وتنشيطها، فقد عُرفت العديد من الأسر بالعلم والتأليف، وكان لها نصيب وافر من المعرفة وبرز منها عدد كبير من العلماء (الجابري، 2005، ص167). ومن أشهر هذه الأسر أسرة الطبري التي تُعد من أقدم وأعرق الأسر العلمية المجاورة في مكة المكرمة، وكان أول من قدم منهم إلى مكة الشيخ رضي الدين أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن علي بن فارس الحسيني الطبري (ت 1175م). كما برز منهم في العصر العثماني أبو الخير بن محمد بن أبي السعادات، وإبراهيم بن أبي اليُمن، ومحمد بن أبي اليمُن، وأحمد بن عبدالله،

وأحمد بن يحيى، وعبد القادر بن محمد وأخوه عبد الرحمن، وفضل الله بن عبد الله وأخوه محمد وغيرهم، ومن أعلام هذه الأسرة أيضاً العالمة مباركة بنت عبد القادر الطبري (السباعي، 1385هـ، ج2، ص106).

كما برزت أسرة ابن ظهيرة في العهد العثماني، ومن أشهر علمائها جمال الدين أبو السعود محمد بن إبراهيم بن علي بن ظهيرة (ت 1501م)، الذي عُدَّ من كبار علماء الحجاز، وتميز في علوم الفقه واللغة العربية والمعاني والبيان والحديث، كما تولى وظائف علمية في بعض مدارس مكة. ومن أعلام الأسرة أيضاً خير الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسين (ت 1504م)، وأبو السعادات (ت 1519م)، وصلاح الدين محمد أبو السعود (ت 1521م) (الجابري، 2005، ص192 – 193).

وبرزت كذلك أسرة ابن فهد، ويعد جمال الدين محمد بن عبد الله (ت1336م) من أقدم من عُرف من هذه الأسرة. ومن أبرز أعلامها أيضاً عز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد (ت 1516م)، الذي نشأ في بيت علم وتلقى رعاية علمية من والده وجده، فنهل من علومهما، وقام بعدة رحلات علمية وتتلمذ على عدد كبير من العلماء، ثم عاد إلى مكة وأقام فيها مشتغلاً بالحديث وعلومه والفقه والنحو وغيرها من العلوم (الفاسي، 1986، ج2، ص79).

ومن الأسر المعروفة بالعلم والمعرفة أيضاً أسرة الكازروني، التي شارك عدد من علمائها في التدريس بالمسجد النبوي، وقدموا مؤلفات في الحديث والفقه واللغة، ومنهم أحمد بن محمد بن محمد تقي الدين عبد السلام الكازروني (ت 1514م) (الجابري، 2005، ص200). وكذلك أسرة آل القطبي، ومن أشهر أعلامها الشيخ بهاء الدين عبد الكريم بن محب الدين بن أحمد القطبي (ت 1605م)، الذي تولى منصب الإفتاء في مكة، وكانت له مكانة كبيرة لدى أمرائها وصلات قوية بالدولة العثمانية، حتى إن أشراف مكة كانوا يتوسطون به في بعض القضايا، ومن مؤلفاته "النهر الجاري على البخاري"، و"إعلام العلماء ببناء المسجد الحرام" (المحبي، د.ت، ج3، ص8).

وهناك أسر علمية أخرى عديدة مثل: آل الفاكهي، وآل المرشدي، وآل المنوفي، وآل القلعي، وآل السنجاري، وآل البصري، وآل العجمي، وآل العتاقي، وآل المفتي، وآل الزرعة، وآل علان وغيرهم، وكان لجميع هذه الأسر دور مهم في التعليم ونشر المعرفة في الحجاز (السباعي، 1385هـ، ج2، ص106 – 109).

المبحث الثالث: دور الدولة العثمانية في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز

بعد دخول الحجاز تحت الحكم العثماني سنة 1517م، تنافس السلاطين والأمراء العثمانيون في خدمة الحرمين الشريفين تعبيراً عن محبتهم لهذه البقاع المقدسة، فأنشأوا العديد من الأعمال الخيرية في الحجاز، وخصصوا الأوقاف الكثيرة للحرمين الشريفين ولسكانهما وعلمائهما، حتى أصبحت الحرمين الشريفين من أكثر مناطق العالم الإسلامي التي حظيت بالدعم والرعاية من الدولة العثمانية (المكي، 2005، ص8).

أما أبرز مظاهر اهتمام العثمانيين بالحركة العلمية في الحجاز فتمثلت فيما يأتي:

أ- الأوقاف والهبات:

ظهر اهتمام الدولة العثمانية بالحركة العلمية في الحجاز بصورة واضحة من خلال الأوقاف والهبات، فعندما سيطرت على الحجاز كانت هناك أوقاف مملوكية سابقة، إضافة إلى أوقاف بعض تجار الحجاز، إلا أن العثمانيين أضافوا أوقافاً جديدة وزادوا المخصصات المالية لأهل الحجاز مقارنة بما كانت عليه في العصر المملوكي. وكانت أغلب هذه المخصصات تأتي من واردات الأراضي الزراعية والعقارات التي أوقفها السلاطين العثمانيون في مصر، إذ كان إرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين من أهم واجبات الوالي العثماني في مصر، وكان يُحاسب عند التقصير في إرسالها (المطيري، 2014، ص22).

واستمرت الزيادات في تلك الأوقاف والهبات من سلطان إلى آخر، فقام السلطان سليم الأول مثلاً بمضاعفة الهبات المرسلة إلى الحجاز بسبب حبه لأهل الحرمين وكثرة إحسانه إليهم، كما كان يكرم الوافدين منهم، حتى أصبح فقهاء مكة وغيرهم من المجاورين يعتمدون في معيشتهم على تلك الغلال والهبات التي كانت تكفيهم معظم أيام السنة (الطبري، 1993، ج1، ص365).

وكانت المساعدات المالية تزداد سنوياً، كما ترتفع في المناسبات الدينية أو عند وقوع أحداث سعيدة كولادة أحد أبناء السلاطين. ففي بدايات الحكم العثماني للحجاز كان يُرسل إلى أهل الحرمين سبعة آلاف أردب، ثم ارتفع العدد إلى اثني عشر ألف أردب، وكان الأردب يعادل (108) أقجة عثمانية، وهي أصغر عملة فضية عثمانية وتسمى بالعشر العثماني (صابان، 1999، ص151)، فضلاً عن ليرة عثمانية عن كل أردب، إضافة إلى إرسال غلال المزارع الموقوفة سنوياً، إلى جانب أموال الصرة العثمانية التي كانت تُرسل كل عام من خزينة الأوقاف السلطانية والخزانة المالية إلى الحرمين الشريفين (المكي، 2005، ص33).

أما الأوقاف فقد كانت أكثر فائدة من غيرها لأنها تمثل مورداً ثابتاً يصل إلى الحجاز سنوياً، وكانت هذه الأموال تُرسل مع صرتي مكة والمدينة، ثم تُصرف على شؤون العلم وقراءة القرآن وتحفيظه للصبيان. ومن أبرز هذه الأوقاف:

1- **وقف الدشيشة الكبرى:** إذ بلغ مقدار ما أُرسل منه سنة 1580م عشرة آلاف أردب من الغلال، ثم أضاف السلطان مراد الثالث أوقافاً أخرى سنة 1582م ليرتفع المقدار إلى ستة عشر ألف أردب (شاهين، 2006، ص117).

2- **وقف الدشيشة الصغرى:** وهو وقف يخصص ريعه النقدي للحرمين إلى جانب ريع الحبوب (شاهين، 2006، ص130).

3- **وقف المحمدية:** وهو وقف يدر ريعاً نقدياً وآخر من الحبوب (شاهين، 2006، ص132).

4- **وقف الدشيشة المرادية:** وهو الوقف الذي أنشأه السلطان مراد الثالث سنة 1589م، وشمل عدداً كبيراً من القرى في مصر، وكان ريعه يُرسل إلى الحرمين الشريفين، وقد خُصص لتحفيظ القرآن الكريم في المدينة المنورة وقراءة أجزاء من القرآن في مكة المكرمة (بيومي، 2006، ص136).

ب- التوسع في بناء المدارس والكتاتيب وتخصيص رواتب للموظفين في الشؤون الدينية والمدرسين:

اهتم العثمانيون ببناء المدارس والكتاتيب وترميمها، ومن أبرز تلك المدارس المدارس السليمانية الأربعة التي شُيدت وفق المذاهب الإسلامية الأربعة بأمر السلطان سليمان القانوني (1520 – 1566م) في مكة المكرمة والمدينة المنورة سنة 1562م، حتى أصبحت من أهم إنجازاته (عبد المجيد، 2018، ص751). وقد تسابق الحكام في إنشاء المدارس حتى بلغ عددها في العصر العثماني أربعين مدرسة في مكة المكرمة ومئة وثماني عشرة مدرسة في المدينة المنورة، وكانت جميعها مرتبطة بالصرة العثمانية. كما تميزت المدارس العثمانية بتخصيص رواتب ومبالغ مالية للمدرسين والطلاب، فضلاً عن اشتراط أن يكون المدرسون فيها، ولاسيما في المدارس السليمانية، من أصحاب مناصب الإفتاء (بيومي، 2006، ص205، 207). وقد سبق التطرق إلى موضوع المدارس والكتاتيب وأعدادها في بداية البحث.

كما اهتمت الدولة العثمانية بالعلماء والأئمة والمفتين، فخصصت لهم الأعطيات والرواتب، إذ كان للخطباء والأئمة في مكة مرتب يومي يبلغ عثمانياً ونصف، وعُيّن أربعة خطباء من الحنفية والشافعية، وجُعل لكل واحد منهم أربعون عثمانياً يومياً، وهي عملة فضية صغيرة تساوي عشر أقجات (صابان، 1999، ص151 ؛ الدمرداش، 1992، ص64)، في حين خُصص لمفتي مكة المكرمة خمسون عثمانياً يومياً (السنجاري، 1998، ج3، ص497).

ج- إنشاء المكتبات:

تُعد المكتبات من أهم عناصر الحياة العلمية والتعليمية في الحجاز عموماً وفي الحرمين الشريفين خصوصاً، إذ كانت أغلب المدارس والكتاتيب تضم مكتبات تحتوي على الكتب المقررة للدراسة آنذاك، وخاصة كتب العلوم النقلية والطبيعية. لذلك أولى العثمانيون اهتماماً كبيراً بهذه المكتبات لكونها من أهم مصادر العلم والمعرفة، وعُيّن فيها موظفون مختصون بترتيب الكتب وتصنيفها (بيومي، 2006، ص225).

كما عملت الدولة العثمانية على تزويد المكتبات بما يحتاج إليه طلبة العلم من الكتب الأساسية، وشجعت القادرين على التبرع بالكتب أو نسخ المؤلفات المهمة، حتى أصبحت كثير من المدارس تحتوي على خزائن غنية بمختلف أنواع العلوم (الدهاس، 2000، ص80).

وقد اختلفت أحجام المكتبات تبعاً لحجم المدارس والكتاتيب، أما المسجد الحرام والمسجد النبوي، اللذان كانا مركزين رئيسين للتعليم والتدريس ويقصدهما الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقد حظيا باهتمام العلماء والخلفاء والحكام والأمراء الذين أوقفوا عليهما مجموعات كبيرة من الكتب ليستفيد منها طلبة العلم (الجابري، 2005، ص297).

ومن أشهر المكتبات التي أنشأها وجهزها السلاطين العثمانيون في مكة المكرمة مكتبة السلطان قايتباي (1412 – 1496م / 1468 – 1496م)، ومكتبة السلطان سليمان القانوني في مدارسه الأربعة، ومكتبة الشيخ إبراهيم الزمزمي التي ضمت نفائس الكتب (بيومي، 2006، ص225 – 226).

أما في المدينة المنورة، فمن أبرز المكتبات مكتبة السلطان قايتباي في مدارسه والتي ضُمت إلى خزانة الحرم النبوي الشريف، إضافة إلى مكتبة السلطان سليمان القانوني، ومكتبة المدرسة الحميدية، ومكتبة عمر قرة باشا (بيومي، 2006، ص226).

الخاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة تم التوصل إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها:

1. كان للدولة العثمانية دور مهم وواضح في ازدهار الحركة العلمية في الحجاز عامة وفي الحرمين الشريفين خاصة، إذ استكملت ما بدأه المماليك، ثم عملت على تطوير الحياة العلمية من خلال التوسع في إنشاء المدارس والكتاتيب وتقديم الدعم الكبير لها.
2. بينت الدراسة أن حركة المجاورة والمجاورين كان لها أثر كبير في نهضة الحياة العلمية في الحرمين الشريفين، سواء من خلال قيامهم بالتدريس في المدارس والكتاتيب أو عبر قيادتهم للحلقات العلمية في المسجد الحرام والمسجد النبوي.
3. أدت الدولة العثمانية دوراً بارزاً في رعاية الشؤون العلمية والثقافية في الحجاز، وذلك من خلال إنشاء المدارس الخاصة بتدريس النحو والفقه والحديث والتفسير، فضلاً عن تخصيص الأموال اللازمة للإنفاق على المدارس والمدرسين والطلاب والموظفين.
4. يتضح أن الأوقاف والهبات العثمانية كان لها أثر كبير في استقرار الأوضاع المعيشية للسكان، ولاسيما العلماء وطلبة العلم، مما ساعدهم على التفرغ للتعليم ونشر المعرفة بعد أن وفرت لهم الدولة العثمانية الظروف الملائمة لذلك.
5. تميزت الأوقاف العثمانية بكثرتها واتساعها، إذ استطاعت تغطية احتياجات الحرمين الشريفين، وكانت تمثل مورداً أساسياً لمعيشة سكانهما، كما أسهمت بصورة كبيرة في ازدهار الحركة العلمية، من خلال الإنفاق على العلماء وطلبة العلم وتوفير احتياجات المدارس والكتاتيب والمساجد، ولولا هذه الأوقاف لما شهدت الحركة العلمية ذلك الانتعاش الكبير.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب العربية والمعربة:

1. بيومي، محمد علي فهيم. (2001). مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني في الفترة من (923 – 1220هـ / 1517 – 1805). القاهرة: دار القاهرة للكتاب.
2. بيومي، محمد علي فهيم. (2006). دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز إبان العصر العثماني. القاهرة: دار القاهرة.
3. التازي، عبد الهادي. (2005). رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة. الرياض: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.
4. الجابري، خالد محسن. (2005). الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي. مكة المكرمة والمدينة المنورة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.
5. الدمرداش، أحمد. (1992). الدرة المصانة في أخبار الكنانة. تحقيق: عبد الوهاب بكر ودانيال كريسليوس. القاهرة: دار الزهراء للنشر.
6. السباعي، أحمد. (1385هـ). تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
7. السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين. (1998). منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم. دراسة وتحقيق: ماجدة فيصل زكريا. مكة المكرمة: مركز إحياء التراث الإسلامي، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى.
8. الشامخ، محمد عبد الرحمن. (1973). التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني. ط2. الرياض: دار العلوم.
9. شاهين، عزة بنت عبد الرحيم. (2006). خدمات الحج في الحجاز خلال العصر العثماني. القاهرة: دار القاهرة للنشر.
10. صابان، سهيل محمد. (1999). المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.
11. الطبري، محمد بن علي. (1993). إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن. تحقيق: محسن محمد سليم. الإمارات العربية المتحدة: دار الكتاب الجامعي.
12. الفاسي، تقي الدين. (1986). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحقيق: فؤاد سيد. بيروت: مؤسسة الرسالة.
13. المحبي، محمد أمين بن فضل الله. (د.ت). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. بيروت: دار صادر.
14. المديرس، عبد الرحمن مديرس. (2001). المدينة المنورة في العصر المملوكي. المملكة العربية السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
15. المصعبي، حمدة بنت عبد الله. (2018). السالنامة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز. مكة المكرمة: دار الملك عبد العزيز.
16. المكي، محمد الأمين. (2005). خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج. ترجمة: ماجدة مخلوف. ط2. مصر: دار الأوقاف العربية.
17. النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل. (1986). الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى مصر والشام والحجاز. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
18. يوسف، عماد عبد العزيز. (2011). الحجاز في العهد العثماني (1876 – 1918). بيروت: دار الوراق.

ثانياً الرسائل والأطاريح الجامعية:

1. آل مشاري، منى حسن. (2014). المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي. رسالة ماجستير (غير منشورة). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الملك سعود.
2. الصبحي، إبراهيم بن محمد. (1989). بلاد الحجاز في القرن السابع عشر. رسالة ماجستير (غير منشورة). كلية الآداب. جامعة طنطا.
3. صديق، آمال رمضان عبد الحميد. (2006). الحياة العلمية في مكة (1115 – 1334هـ / 1703 – 1916م). أطروحة دكتوراه (غير منشورة). كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
4. المطيري، نبيلة بنت سعود. (2014). الحياة العلمية في مكة المكرمة (1228 – 1256هـ / 1813 – 1840م). رسالة ماجستير (غير منشورة). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الملك سعود.

ثالثاً: البحوث المنشورة (المجلات):

1. الدهاس، فواز بن علي. (2000). المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي. مجلة الجمعية التاريخية السعودية. العدد الثاني. السنة الأولى.
2. صابان، سهيل محمد. (1998). جوانب من الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية (1039 – 1336هـ). مجلة الدرعية. العدد الأول. المجلد الأول.
3. عبد المجيد، عبد المنعم عبد الرحمن. (2018). المدارس السليمانية في مكة المكرمة ودورها العلمي إبان القرن الحادي عشر الهجري. مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة. المجلد (37). العدد (2). كلية اللغة العربية. جامعة الأزهر. الزقازيق.
4. العواد، فاطمة علي. (2015). الحياة الثقافية في مكة والمدينة في عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني (1277 – 1293هـ / 1861 – 1876م). مجلة جامعة الملك عبد العزيز. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. العدد الثاني. المجلد الثاني.

List of Sources and References:

First: Arabic and Translated Books:

1. Bayumi, Muhammad Ali Fahim. (2001). Allocations for the Two Holy Mosques in Egypt during the Ottoman Era (923-1220 AH / 1517-1805 CE). Cairo: Cairo Book House.
2. Bayumi, Muhammad Ali Fahim. (2006). Egypt's Role in the Intellectual Life of the Hijaz during the Ottoman Era. Cairo: Cairo Book House.
3. Al-Tazi, Abdul-Hadi. (2005). The Journey of Journeys: Mecca in One Hundred Moroccan Journeys. Riyadh: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.
4. Al-Jabiri, Khalid Muhsin. (2005). Intellectual Life in the Hijaz during the Mamluk Era. Mecca and Medina: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.
5. Al-Damardash, Ahmad. (1992). The Preserved Pearl in the History of Kinana. Research by: Abdul Wahab Bakr and Daniel Crislius. Cairo: Dar Al-Zahra Publishing.
6. Al-Siba'i, Ahmad. (1385 AH). History of Mecca: Studies in Politics, Science, Society, and Urbanism. Riyadh: King Fahd National Library.

7. Al-Sinjari, Ali ibn Taj Al-Din ibn Taqi Al-Din. (1998). Generous Gifts in the History of Mecca, the House, and the Governors of the Sanctuary. Study and research by: Majida Faisal Zakaria. Mecca: Center for the Revival of Islamic Heritage, Institute of Scientific Research, Umm Al-Qura University.
8. Al-Shamikh, Muhammad Abdul Rahman. (1973). Education in Mecca and Medina at the End of the Ottoman Era. 2nd ed. Riyadh: Dar Al-Ulum.
9. Shahin, Azza bint Abdul Rahim. (2006). Hajj Services in the Hijaz during the Ottoman Era. Cairo: Cairo Publishing House.
10. Saban, Suhail Muhammad. (1999). The Encyclopedic Dictionary of Ottoman Historical Terms. Riyadh: King Fahd National Library Publications.
11. Al-Tabari, Muhammad ibn Ali. (1993). Ithaf Fudala' al-Zaman bi-Tarikh Wilayat Bani al-Hasan. Edited by: Muhsin Muhammad Salim. United Arab Emirates: Dar al-Kitab al-Jami'i.
12. Al-Fasi, Taqi al-Din. (1986). Al-'Iqd al-Thamin fi Tarikh al-Balad al-Amin. Edited by: Fu'ad Sayyid. Beirut: Al-Risalah Foundation.
13. Al-Muhibbi, Muhammad Amin ibn Fadl Allah. (n.d.). Khulasat al-Athar fi A'yan al-Qarn al-Hadi 'Ashar. Beirut: Dar Sader.
14. Al-Mudayris, Abd al-Rahman Mudayris. (2001). Al-Madinah al-Munawwarah fi al-'Asr al-Mamluki. Kingdom of Saudi Arabia: King Faisal Center for Research and Islamic Studies.
15. Al-Mus'abi, Hamdah bint Abdullah. (2018). Al-Salnameh: A Source for the History of the Hijaz. Makkah: King Abdulaziz Foundation.
16. Al-Makki, Muhammad Al-Amin. (2005). The Ottoman Services in the Two Holy Mosques and the Hajj Rituals. Translated by: Majda Makhlouf. 2nd ed. Egypt: Arab Endowments House.
17. Al-Nabulsi, Abdul Ghani bin Ismail. (1986). Reality and Metaphor in the Journey to Egypt, the Levant, and the Hijaz. Cairo: The Egyptian General Book Organization.
18. Youssef, Imad Abdul Aziz. (2011). The Hijaz in the Ottoman Era (1876-1918). Beirut: Dar Al-Warraq.

Secondly, University Theses and Dissertations:

1. Al-Mashari, Mona Hassan. (2014). Residents of Makkah and Madinah in the Mamluk Era. Master's Thesis (Unpublished). College of Humanities and Social Sciences. King Saud University.
2. Al-Subhi, Ibrahim bin Muhammad. (1989). The Hijaz in the Seventeenth Century. Master's Thesis (Unpublished). Faculty of Arts. Tanta University.
3. Siddiq, Amal Ramadan Abdel Hamid. (2006). Intellectual Life in Mecca (1115-1334 AH / 1703-1916 CE). Doctoral Dissertation (Unpublished). Faculty of Sharia and Islamic Studies. Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia.
4. Al-Mutairi, Nabila bint Saud. (2014). Intellectual Life in Mecca (1228-1256 AH / 1813-1840 CE). Master's Thesis (Unpublished). Faculty of Humanities and Social Sciences. King Saud University.

Third: Published Research (Journals):

1. Al-Dahhas, Fawaz bin Ali. (2000). Schools in Mecca during the Ayyubid and Mamluk Eras. Journal of the Saudi Historical Society. Issue 2. Year 1.
2. Saban, Suhail Muhammad. (1998). Aspects of Scientific Life in the Hijaz Through Some Ottoman Documents (1039-1336 AH). Al-Diriyah Journal. Issue 1. Volume 1.
3. Abdul Majeed, Abdul Mun'im Abdul Rahman. (2018). The Sulaymaniyah Schools in Mecca and Their Scientific Role During the Eleventh Century AH. Journal of the Faculty of Arabic Language in Mansoura. Volume (37). Issue (2). Faculty of Arabic Language. Al-Azhar University. Zagazig.
4. Al-Awad, Fatima Ali. (2015). Cultural Life in Mecca and Medina During the Reign of Sultan Abdul Aziz bin Mahmud II (1277-1293 AH / 1861-1876 CE). Journal of King Abdul Aziz University. Faculty of Arts and Humanities. Issue 2. Volume 2.

Vol 13, Issue 44, May 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X